

أحمد إبراهيم إسماعيل

١-عازفة الكمان!

لم يدرك حينها شيئا مما أحاطه رغم جماله ، أشجار تمازجت ألوانها بين خضرة لأوراق تضحك وحمرة لثمار تكركر وبُنِّية لفروع تبتسم ، وبين جمال الخضرة وابداع الحمرة وروعة البنية ساد هذا البياض لحمائم غزا شدوها أجواء أحاطته إحاطة الأم بوليدها ، لعله لم يعبئ كثيرا بتلك المحيطات وقد انشغل عن كل ذلك بهذه الألحان المتصاعدة من كمان ساحر تسير مختالة الى أسماعه كأنها عذراء تُزف إلى أمير ، تتبعها حائرا لا يعرف ألمبدعٍ من الآدميين كانت أم أستوت على عرش من الابداع شيدته أيادى جنس آخر أكثر سموا لا يِعرفه ، هاقد قادته أقدامه التابعة لأسماعه الى حيث تولد الألحان من رحم قيثارة صنعتها كفوف السمو الانسانى ، جلست كمليكة تستظل من حرور شمس تراقبها فى حنو بشجرة تستمع لألحانها فى اصغاء لا يتقنه كثيرا بنو البشر ، لم يسمع لها صوتا...وكأنها أنابت عنها ألحانها المقتبسة من عذب نبراتها عذوبة تراقصت لها جميع المخلوقات المتابعة لما أنجزته ، انها أخيرا ابنة لحواء تعرف للسمو طريقا أنكرته الكثيرات من قريناتها ، بدت فى ثيابها البيضاء وحلتها الأشد بياضا كما استثناء رجته حواء من ربها فصورها على مثل هذه الصورة من الروعة أرادتها فيها أمها الأولى قبل آلاف العقود ، لم يعرف لها اسما ولم يهتم...يكفيه منها ما يسرى فى نفوس سامعيها من عذب ألحانها يشعرهم بما يحتوون من عظمة انسانية أرادها فيهم خالقهم القدير...نظرة واحدة أنسته من أخطاء الماضى وغصصه كل شئ...اقترب فانتبهت...نظر فابتسمت...وحين بدأ بالحديث...توارت الى حيث لا يعرف واختفت...بدا بحثه عنها وجِلا كأنما ضاع من عمره سنون ، وحين ضاقت به أرض الله بما رحبت جلس تحت ذات الشجرة يسترجع مما جرى على مسامعه من ألحان لازالت تعزف على أوتار قلبه حتى لحظة الجلوس ، أغمض عينيه حينا يمنع من عينيه دموعا توشك أن تنسرب ، لينتبه أخيرا لعينيه تنكشفان عن صورة سقف حجرته بلون الرماد وقد أخرجته من حلمه دقات منبهه ، انها من جديد معاكسات عقله الباطن التى يشاكسه بها من حين لآخر ، ابتسم ابتسامة صغيرة بين الضحك والبكاء وما زال يسمع فى أغواره ذلك الصوت يتردد على صوت الألحان.

لم تكن أول المرات التى يشاكسه فيها عقله الباطن على هذه الصورة التى يعيده فيها منبهه الى عالم الأحياء من جديد ، سنوات مضت ومازالت المعركة ناشبة بينه وبين عقله اللعين يباغته فيها كل حين بذكرى قديمة مضت أو حلم عجوز دُفن بين مقابر يأس باتت لرايته الكلمة العليا فى ميادين أغواره

كعادته استيقظ فاقدا الرغبة فى أى شئ ، لم يُطل فى ضبط هندامه ، غير أن شيئا ما استوقفه أمام مرآته فتخشبت قدماه فجأة قبل الانصراف ، لماذا يبدو على هذه الحال التى لا يراها الا فى كبار السن؟ طالت ذقنه الى حد كبير لم يشهده وجهه قبل الآن ، بدت عيناه كما لم تنم منذ

سنوات متوسلة لصاحبها بالنوم من تحت عدستى نظارته، تحسس ذقنه بهدوء وعيناه تتفقدان مرآته لثوان ، لم تعد به قدرة على التأمل أكثر من تلك الثوانى فتناول بعض أوراق ضمها إلى بعضها ب(لبيسة) قلمه وانطلق الى كليته كعادة كل صباح ، لا يدرى ما الذى يدفعه على هذا البكور وهو الكاره لدراسة لم تكن يوما بين طموحاته بأى حال ، قد تبدو الرغبة فى مكان هادئ يعانق فيه أوراقه بهدوء ينهل من سطورها وتنهل من أفكاره فيرتوى بالنهالين ظمأ أدبه ، أو لعلها الرغبة فى لقاء أصدقائه الذين عوضه بهم القدر عن أخرين طال رقادهم تحت التراب ، أو قد تكون رغبته فى البعد عن معارك عقله الباطن التى كثيرا ما باعدت بينه وبين سويعات النوم طوال أجازة صيفه وما شابها من أحداث ، أيا كان السبب فلم يتوقف عنده كثيرا ، المهم الآن أنه بين أحضان كلية الصيدلة فى أول أيام دراسة عامه الثالث على أحد مقاعدها يتناول مشروبا ساخنا أعانه على الانفراد بعشيقته الأولى...أوراقه المنتظرة مداد أحباره!

٢-كيف لم يلتفت!

مضت الدقائق على جلسته تتبعها الدقائق حتى أتم أصغر العقربين دورة وبعض دورة فى ميدان ساعته الكبير أسفرت عن بعض مما فاض به مداد ذهنه على وريقاته ، ما زالت طرقات الكلية لم تضج بساكنيها بعد رغم تعاقب الدقائق ونفاذ الأوراق وملل الأيادى والأحبار ، طوى الأوراق ونحاها جانبا قبل أن يضع إحدى قدميه فوق الأخرى واضعا يسراه فى جيبه ومتناولا مشروبه الدافئ بيمناه وقد على بخاره مداعبا أنفه البارد وشفتيه اليابستين من قلة الحديث متفقدا لاشئ بعينيه الضائقتين عن محيطهما الطبيعى خلف زجاج نظارته علَّه يجد بين القلائل من السائرين أحد أصدقائه يستهلك بصحبته ملله الذى أسره بقيود قلة الحديث خلف قضبان طول الساعات.

طال انتظاره وأخذ عدد الوافدين للكلية فى التزايد وعيناه بين الجميع حائرة تقتل بحيرتها ملل صاحبها حتى ثبتت أخيرا بعد طول انتظار.

كانت بين السائرات من قريناتها أشبه بملكة تتبعها من الوصيفات الكثير ، فمهما زاد موكب الوصيفات...فمازالت الملكة تأسر إليها كل العيون ، لا لشئ إلا لأنها...ملكة!

لازال يذكر رغم مرور السنوات ردائها الأبيض ملتحف السواد ، حجابها المحيط بوجه لمعت عيناه كنجمتى ليل صافٍ فى أواسط الربيع ، فمُ بدا من خلقته أنه لم يُخلَق إلا لقول الموزون من الكلمات بموازين الذهب ، أنف كأنه المخلوق لعناق الورود والدفئ بأريجها لا لشئ آخر ، ضمت حقيبة يدها إلى جنبها ومضت سريعة لا يوقفها عن طريقها واقف ولا يلفت انتباهها لافت كأنها ابنة للخامسة أُرسلت لشراء شئ فى ليل مطير وتخشى الضياع فعالجت خوفها باسراعها دون الاهتمام بشئ آخر دون العودة سالمة من حيث أُرسلت ، كثيرا ما رآها بين الجمع من بعض أصدقائه تضحك فتلقى بضحكاتهم الى الهاوية وقد انفردت وحدها بضحك يفوق ضحك البشر إشراقا ، تتحدث فتطغى نبرتها على نبرات الجميع كأنها النبرة المستعارة من أصيل شمس لا تريد الغروب ، يعرفها ويتذكر اسمها ، (ليلى) ، نعم (ليلى) ،ماله يبدو

وكأنه يراها لأول المرات؟ هل تكون تلك العازفة فى حلمه؟ سمعها من عقله الباطن فابتسم ساخرا بنفسه من نفسه ، عاد لمشروبه وأوراقه وقد اختفت الى حيث ابتلعها ذلك الممر الضيق المفضى الى مدرجه وفى ذهنه سؤال تعالت داخله نغمته (كيف لم يلتفت اليها قبل الآن وقد ضمه واياها مدرج واحد لعامين؟ ...كيف لم يلتفت؟)

٣-وبات للحضور سبب!

لم تطل نظرته لمدخل الممر الذى بات بعد اختفاءها من طرقاته ككهف أضئ لثوان بضياء برق أظلم بعدها للأبد ، أخرجته من نظراته وأفكارها وصورة صاحبة النظرات والأفكار نداءات أصدقائه الواصلين للتو ، دقائق مضت بين أحضان اعتادها مع آخرين رحلوا وقبلات ألفها مع هؤلاء الراحلين مع كل غروب شمس فى حجرة أحدهم يستدفؤون بصدق علاقتهم من برد الشتاء ويستعينون باخلاص صداقتهم على حرور الصيف.

مات أصدقاء وجاء آخرون وصاحب القبلات والأحضان بين الراحلين والباقين يودع أناسا ويستقبل آخرين دامع العينين للمودعين وباسم الشفتين للمُستَقبلين لا يملك الا تعايشا مع الأحداث يعينه على اكمال خطوات طريقه الى نهايته بأقل الخسائر.

انتهت ترحيباته بأصدقائه وترحيبات أصدقائه به غير مدركين ما يدور بخلده من صور ملائكة ودعوه قبل شهور الى حيث لا رجعة ، وملاك آخر ودعه بسيره سريع الخطى عبر الممر الضيق قبيل دقائق ، تحادثوا فيما بينهم حول قضاء كل منهم إجازته ضاحكين مسترجعين ذكريات شهرين قضوها بعيدا عن صداع الحياة وعقبات سيرها ، اكتفى بينهم بخفيف الابتسامات ، لم يسأله أحدهم عن كيفية قضاء إجازته ، جميعهم يعلم كيف قضاها بين صور تحفها أشرطة سوداء!

توالت دقائق حديثهم حتى دقت ساعة الثامنة فهموا بالانصراف الى المحاضرة الأولى يخاطبه أحدهم:

-أمجد...ستصحبنا أم تبقى بالخارج مع أوراقك كعادتك؟

-بل سأ....

همَّ بالجلوس مخرجا أوراقه يستعد للعودة إلى أحضانها من جديد قبل أن يتوقف عن كلماته كأنما تذكر شيئا ما وقد لمع بخياله طيف مليكة انحدرت عبر هذه الطرقة الى المدرج قبل دقائق فتدارك نفسه وهم واقفا من جديد قائلا:

-سأصحبكم الى المحاضرة!

قالها وابتسم طاويا ورقاته مدفئا إياها فى جيبه منطلقا الى صاحبه يطوق كتفه بيمنى ذراعيه وقلبه قد تزايد نبضه بمجرد وطأة قدميه لممر تطابقت فيه خطواته وخطوات إحداهن مرت فيه قبل قليل.

الآن فقط بات لحضور المحاضرات سببٌ مقنع!

٤-حلقة الوصل!

ليلى!

اسم مر أمامه طوال العامين الماضيين كغيره من الأسماء فى دفعته إما بأحداهن تناديها وسط ضوضاء المدرج بين المحاضرات أو مكتوبا فى أحد الكشوف اللعينة التى تضم أسماء الطلاب مصحوبة بأرقام أشد لعنة من كشوفها ، دخل المدرج بصحبة صديقه جالسا فى آخر الصفوف كما اعتاد فى المرات القليلة التى حضر فيها محاضرات العامين السابقين ، لم يرَ من زحام الحضور إلاها تجلس فى ثانى الصفوف وكأن باقى الأجساد بين جدران المكان ليست إلا تحفا تفصله وهو زائر المتحف عن تحفته الأغلى هناك فى آخر المكان ، لا يذكر أنه أدرك أى شئ من كل ما قيل حوله من همهمات الطلبة وشرح استاذهم وهو التائه فى طرقات حديثه لنفسه الحائر بين أسئلة متبادلة بينه وبين عقله الباطن تاهت عن هدف الإجابات:

هل تكون هى؟... لا أعلم!...هل تظنها حقا صاحبة تلك الألحان فى منامك؟...لا أعلم!...هل تكون عازفة الكمان التى تبخرت مع كمانها تحت شجرة الصفصاف؟...لا أعلم!...تُرى إن كانت هى هل ينتهى الأمر باختفاءها كما اختفت قرينتها فى رؤياك؟...لا أعلم...لا أعلم...لا أعلم...لكنى......أظنها كذلك!

هكذا حدث نفسه وهكذا حدثته نفسه ، وهو بين الحديثين قد تجسدت له جالسة على عرش أفكاره لا ينازعها عليه من الأحياء أحد ، تابع همسها لصديقتيها عن يسارها ويمينها فتبسم لخلجها حتى فى الحديث مخافة ان يراها المحاضر ، هى اذن أنثى ببراءة طفلة تسرع فى مشيها وتستتر فى همسها ، تابع مراقبتها وتابعت همسها المتقطع حتى مضى وقت المحاضرة كاملا فدبت فى أرجاء المكان ضوضاءه من جديد وقام كلٌ إلى غايته متفرقين ، لكنه دون الجميع بقى فى مكانه يرد سؤال أحدهم عن أحواله ببسمة ويرد عزاء آخر فى مفقوديه بإيماءة وقد أحاط البسمة وإيماءتها بعبارات شكر لله فى سراءه وضراءه.

-لعلك بحال أفضل الآن يا أمجد!

سمع الجملة فعرف صاحبتها فالتفت باسما:

-الحمد لله يا زينة ، كيف أنتِ؟

-الحمد لله ، كل شئ على ما يُرام.

دارت بينهما رحى الحديث طويلا يتجاذبون كلمة من هنا وأخرى من هناك انصبت كلها فى منبع التخفيف عنه فيما كان طوال إجازة صيفه ، كانت زينة أقرب المحيطين به عن الجميع ،

سره فى بئرها ، وعلنه تعلمه قبل إطلاع الآخرين عليه ، عوضه الله بها عن الراحلين خيرا فباتت رابطته الوحيدة بحياة بنى آدم تبقى على امله فى وجود أحد من سلالة مقدسى الصداقة والمخلصين لمعانيها ، أحبها كأخته فباتت كذلك ، كان يعلم العلاقة الوطيدة بينها وبين ملاكه المُراد ، قد تكون أخته حلقة وصله بملاكه إذن ، ستعينه على نيل مراده بكل تأكيد وهى المتمنية خروجه من اكتئابه كما تردد دائما فى أحاديثها له ، ستعينه ولن تتردد... إنها أخيرا حلقة الوصل التى بعثتها الأقدار!

٥-الحديث الأول!

رآها تتابع صديقتها من بعيد كأنها بها تنتظر انتهاءها من حديثها معه فوجل قلبه ، تعمد إطالة الحديث مع زينة علَّها تأتى اليهما فكان له ما أراد ، لأول مرة ارتدت الخطوات السريعة رداء البطئ ، اقتربت شيئا فشيئا وهو مع كل خطوة تتصاعد أنفاسه كأنما تتصعد روحه فى السماء لا يملك لها إرجاعا ولا لجنبات جسده الضام لها هدوءا يسعفه على التظاهر بالثبات ، اقتربت أكثر فاضطرب أكثر حتى وصلت بالقاء سلامها الخارج من بين شفتين ضقيقتين كأنه اليمامة خرجت من عشها الصغير مغردة على ألحان أنداء بكور أظلته شموس الابداع الإلهى.

رد سلامها كما ردته أخته وصديقتها ثم أتبعت السلام بقوله:

-أمجد كيف حالك؟

سمعها بقلبه دون سمعه واستشعرها فؤاده دون أذنيه ، رد فى بعض الثبات:

-الحمد لله يا ليلى ، كل شئ على ما يرام ، كيف أنتِ؟

-بخير حال الحمد لله ، البقاء لله!

-الحمد لله!

تدخلت زينة فى الحديث راغبة تحويله الى بعض الترويح عن الجميع مخاطبة أمجد:

-لعلك كعادتك ستعتمد على انهاء العام الدراسى دون مجهود مادمت تعتمد على النية الحسنة كما تقول ، لا حاجة لك بدراسات الكتب وحضور المحاضرات.

قالتها فضحكت لها ليلى تحرس ضحكتها بكفها الرقيق مقتربا من شفتيها ، تخجل حتى من الجهر بضحكاتها وهى الملكة لابد لضحكاتها من اسلوب خاص يختلف عن الجميع ، ابتسم لها متكلفا يأتيه تعقيب محبوبته:

-يعجبنى هذا التفكير ، ليتنى اتقن مثله.

ودَّ ساعتها لو قال إنه أعظم شئ فى الوجود لأنه من قاده إلى عرش الجمال الذى تجلسين عليه ، قالها بعقله واكتفى بسماع أصدائها بين أركانه تهزها بعنف ، غير أنها الأصداء التى لم تجد لها من تلك الأركان مخرجا فتكلف ابتسامة أتبعها برد روتينى باسم.

استمر اللقاء دقائق مرت عليه كأصغر وحدات الزمان قياسا وكأن عقارب الساعة قد شهرت سلاحها ضد رغبته وانتصرت عليها فى نهاية العراك ، استأذنت وصديقتها فى الانصراف وظل هو يتابعها حتى الخروج من المدرج ورأسه لا يزال مرتبكا يراجع لقاءه الدائر منذ دقائق يسترجع قولاتها ويراجع ردوده يلوم نفسه على رد ظن أن بامكانه إخراجه بشكل أفضل ، ثم يبتسم معجبا بنفسه فى رد آخر ، يسترجع ضحكاتها فيبتسم ، يستعيد بسماتها فعلى قسماته الرضا يرتسم ، بات هذا اللقاء أهم ذكرى تجمعه بأحد تضمه كشوف الأحياء من بنى الإنسان الآن ، اللعنة على مشاعر المحبين ، كم هى محترفة فى الباس أصحابها ثياب السُذَّج وعباءات المجاذيب، تناول وريقاته وقلمه وهمّ بالانصراف تتصاعد داخله نبرات الحديث الأهم فى حياته بكل تفاصيله ، نبرات الحديث الأول!

٦-حقيقة أم درب الخيال؟!

انتهى اليوم بأسرع مما توقعه على عكس عادته فى سابق عاميه حيث مرور ثقيل للوقت وما يشغله ، لا يدرى ألأن ساعات اليوم قد مضت عليه مبحرا بين لجج التفكير فى ملاكه الجديد ، انتهت الساعات وحان وقت الانصراف كعادته مع صديقه عصام ، ودَع الجميع وهم بالانصراف قبل أن يستوقفه أحد أعز أصدقائه سعد قائلا:

-أمجد ، ألن تأتى بصحبتنا لعيد ميلاد .....؟

-لا ، لا أرغب فى أى شئ أفضل العودة للمنزل.

-هيا يا رجل إنها عدة ساعات فقط ، أنت بحاجة لتغيير جو الكآبة هذا الذى يسيطر عليك

تلقاها فابتسم يربت على كتف صديقه قائلا:

-وقت آخر ان شاء الله!

-حسنا كما تحب .

قالها وانصرف الاثنان كل إلى غايته قبل أن تستوقفه من جديد رؤيتها تتهادى تهادى عذارى الأميرات يغلفها خجلها الجميل الى إحدى السيارات بصحبة صديقاتها إلى حفلة عيد الميلاد المزعوم ، لأول مرة يتملكه هذا الندم على ضياع شئ من يده ، ودَّ ساعتها لو انطلق الى صديقه يتوسل له بالحضور ، دقيقة واحدة من النظر إليها باتت تعنى له الكثير ، فما باله بعدة ساعات إضافية تنهل فيها عيناه من يم صورتها عذب المجرى هادئ السريان؟!

لم تطل وقفته كثيرا وقد انطلق الجميع تضيئهم هى بحضورها وبقى هو بصحبة صديقه عصام يهمان بالانصراف

خطوات متهادية ساراها فى ذلك الشارع الطويل الفاصل بين الكلية ومحطة المترو يجمعهما حديث عابر اجتهد أمجد فى انهاءه ليتفرغ لأفكاره وبطلتها ، هل حقا تعلق بتلك الفتاة لهذه الدرجة؟ ، أم أنه مجرد وهم صورته له أحزانه لتخرجه من انطوائه الى عالم الأحياء من

جديد؟ ، هل حقا تكون الشطر المكمل شطره لتعوضه بها الأقدار عن مفقوديه؟ ، أم أنها خيالات أوهمته بها أشجانه لتمنحه القوة على تخطى ما هو بصدده من معوقات الأيام ، لا يعلم أيها تكون الإجابات ، اكتفى برفع رأسه الى السماء مغمضا يسترجع بذهنه البوما صغيرا لصور اليوم الأول وما تم فيه وقد تصدرت مليكته جميع المشاهد تارة بضحكها وأخرى بهمسها وثالثة باشارتها ورابعة وخامسة وسادسة بسيرها وحديثها واستماعها ، يا الله! ، كيف انتبه لكل تلك الحركات والسكنات التى لم يتجاوز عمرها ساعات وأودعها رفوف مكتبة ذاكرته وهو الغير معتاد على الإهتمام بأى شئ؟ ، أفق أيها الكاتب الحزين ، ليست هذه إحدى بطلات أحلامك ذات عمر الثوانى أو بطلات خواطرك المتناثرة فى درج مكتبك ذات عمر السطور ، أنت تتحدث عن انسانة تحيا إلى جوارك على أرض هذا العالم ، انسانة تبكى حين تُجرح لا تختفى كبطلات أحلامك ، إنسانة تقهقه حين تفرح لا تطير كبطلات خواطرك ، تبدو أسمى كثيرا من قريناتها بنات حواء ، لكنك يا عزيزى لست هذا الآدم الخبير فى التعامل مع مثلها يا صديقى كاتب الخواطر أسير الأحلام.

-كأنك النائم منذ سنوات ، استيقظ وصلنا!

انتبه أخيرا من حديث نفسه لنفسه على كلمات صديقه المدعومة بقبضته تهزه فى عنف فالتفت له قائلا:

-يوما ما سأفجر هذا الرأس الفارغ يا صديقى العزيز!

-كالعادة تثق فى نفسك كثيرا يا غلام

-هذا الغلام سينفذ تهديده بأسرع مما تتوقع !

كلمات باسمة بين الصديقين أخرجت ذلك الأمجد الحالم من تداخل تفكيراته قبل أن يودع صديقه منصرفا الى حيث تضمه جدران حجرته فى صمت من جديد ، أغلق عينيه ثوان كأنه به يسترجع ونفسه هذا الحديث السرى الذى قطع صديقه أحباله ، انصرف ماشيا فى ذلك الطريق الضيق المنحدر الى بيته ولا يزال داخله هذا السؤال يتردد دون توقف (هل تكون حقيقة أم مجرد درب من دروب الخيال؟!)

٧-أيكون هو؟

لم يكن أمجد من هذا النوع من الشباب الهاوى مصاحبة الجنس الآخر أو الخبير فى تعاملاته معه ، قد يساهم فى ذلك تجاربه السابقة الفاشلة مع بنات هذا الجنس الذى علمه فى نهاية الأمر الحرص الشديد على تجنب تعاملاته معه الا فى أضيق الحدود وأقل المناسبات ، كثيرا ما وجدها بطلة لروايات وقصص قرأها لكُتَّاب عديدين ، لكن أيا منها أبدا لم يطلعه على أسرار المرأة وسبل معاملاتها ، يراها فى إحدى الروايات ملاكا لا شائبة فيه ، ثم فى أخرى شيطانا لا كرامة به ، هو نفس الكاتب وقصته إذن من يتحكم فى سير الرواية وخصائص بطلتها ، تعطف عليه حبيبته ببعض حبها فتكون أولى البطلات ، أو تبخل به عليه فتكون ثانيها ، لا

حاجة له إذن بوصف تحكمه مبالغات المديح أو تسيطر عليه تضخيمات الهجاء ، مازال باحثا عن تلك الرواية صاحبة البطلة الواقعية بين بنات حواء ، بدت له أخيرا متجسدة فى أرض واقعه حين رآها تنحدر فى أحد الممرات هناك بين أسوار كليته ، لكنه إلى الآن لم يعلم القاعدة الأهم ، كيف يعامل المرأة وكيف تعامله!

قليلات فقط لا يتعدى عددهم أصابع يد واحدة كُنَّ استثناء نجحن فى نيل ثقته من بينهن زينة صديقته الأقرب الى قلبه بين الجميع الآن بعد رحيل الراحلين ، ثقته فى زينة اقتربت من العمياء ، يستشيرها فى كل شئ وتشير عليه فى كل شئ ، كانت اليد الماسحة دموعه وكان الكف المزيل دموعها ، أخوان ولدتهما دنياهما من رحم الصدق فى التآخى والاخلاص فى الصداقات.

دخل حجرته ذلك اليوم كعادته دون ضوضاء فلم يشعر به أحد وهو المعتاد على تلك الحالة منذ رحيل أصدقائه واعتادها منه أهل بيته ، لم تكن به رغبة لنوم فالتجأ الى حاسوبه يطالع أى جديد على شبكة الانترنت يشغل به وقت فراغه ، بدت له صورتها فى أحد الصفحات على (الفيسبوك) فتذكر أنها اسم فى قائمة أصدقائه ، من جديد سأل نفسه (كيف لم يلتفت؟).

قبل أن يتوقف قليلا مسائلا نفسه (بل لماذا الآن يلتفت؟) كانت بين الجميع فى الكلية عامين فلم يلتفت لها ، وبين أسماء عدة فى قائمة أصدقائه فلم ينتبه ، أيكون هو من أطلق خيل انتباهه لها وحرر طير التفاته لوجودها؟ ، أيكون ذلك الفارس بين الحاء والباء الذى غزا أسوار قبله حاملا راية ارتسمت بها صورتها؟ ، أيكون هو....الحب؟!

٨-وبدأت أحداث الحكاية!

كانت أولى المرات التى تتملكه فيها إحدى بنات حواء على مثل هذه الصورة التى تعجب هو نفسه لها ، وجد نفسه بمرور الأيام يعود من كليته بعد قضاء يومه فى مراقبة حركاتها وسكناتها معجبا بكل شئ تصدره فلا يخلد للنوم كسابق عادته ، يفتح حاسوبه ويبقى مترقبا ظهورها علّه يظفر معها بحديث عمره دقائق أو يفوز منها برد تعداده لحظات ، بات فى شراايينه قارب حبها سائرُ يتهادى باحثا عن شاطئ يهدئ لواعجه ، أصبح على جدار قلبه صورة محياها باحثة عن صاحبتها متمنية مجيئها ساكنة خلف الجدار يحميها صاحبه بحياته.

هكذا تبدلت حياته وهكذا أحب هذا التبديل ، لم يعد ذلك الكاره كليته وقد بات بين جدرانها قمر أضاء ظلام ليلها وأزال وحشته ، بات ينتظر ظهورها للحديث فى أى شئ وبأى شئ ، تعجبه الردود لا لأنها موزونة بل لأنها خارجة من بين شفتيها ، ويفتتن بأقواله لا لأنه قائلها بل لأنها لمسامعها سائرة.

بات حضوره للمحاضرات أمرا لابد منه وان كان مُكرها ، اتخذ له مكانا جديدا خلفها مباشرة علَّ أسماعه تفوز من فمها بهمسة تغنيه عن كل ما أحاطه من همسات أو عيناه تظفران من يديها بحركة تغنيه عن كل ما أحاطه من حركات أو قلبه يغنم من رؤيتها بنبضة تغنيه عن كل ما أحاطه من نبضات ، يسمع منها مالا يسمعه سواه ويرى منها مالا يراه سواه ويحس منها

مالا يحسه سواه ، فقط لأنها باتت شغله الشاغل فيتخيل أحاديثها له ونظراتها له وإحساسها به دون الجميع وان لم تنطق أو ترى أو تشعر.

مضت أيامه به على تلك الوتيرة لا تغيير به الا من زيادة أنغام أوتار حبه لفراشته ولا تبديل فيه الا من تصاعد نبرات أشعار عشقه بمليكته ، بات على يقين الآن أنه.....يحبها!

٩-بطلة الحلم!

باتت أحاديثه لها الجزء الأهم فى حياته ، ينام فيحادثها بأحلامه ويصحو فينتظر محادثتها فى واقعه ، يحسد أذانه لأنها عانقت كلماتها ويغبط لسانه لأنه صادق أذانها ، كان الحديث فى تلك الليلة مختلفا عن سابقيه بعض الشئ وقد طال بهما عبر حاسوبه بعض الشئ:

-هل لى أن أسألك سؤالا يا ليلى؟

-بالتأكيد تفضل!

-أليس لك أية هوايات بعيدة عن مجال دراستنا؟

صمتت حينا وقد بدا أنها تفكر فى اجابة قبل أن يأتيه ردها:

-أهوى عزف....

لم ينتظر اكمالها جملتها فباغتها بقوله:

-الكمان؟!

-ما هذا كيف علمت؟

اربكته كلماتها فبحث بين خلايا ذهنه عن مناسب الإجابات بلا فائدة وقد هربت جميعها متخلية عنه فقال بعد صمت:

-مجرد تخمين ، ليس أكثر! ، هل جربتى احتراف هذه الهواية؟

-ممم ، فى الحقيقة لا ، أتخذها هواية لقتل الفراغ ليس أكثر

استمر الحوار بينهما حينا حتى وقت متأخر من الليل حتى استأذنته أخيرا بالانصراف ، ودعها وبداه تودان لو تترجاها بالبقاء ثوان أخرى وفى رأسه عادت صورة ذلك الحلم من جديد ، وجد نفسه سائلا نفسه (هل يتحقق الحلم وتختفى من تحت أغصان حبه كما اختفت بطلة حلمه؟) ، لم يجد إجابة ، أنكر الفكرة وأوى الى فراشه متمنيا رؤية عازفة الكمان من جديد تحت شجرته باقية دون رحيل.

١٠-على رصيف الميترو!

كان انتظاره كل يوم لانصرافها بعد انتهاء اليوم شاقا على جسده وهو الغير معتاد على الانتظار محببا لقلبه الذى عشق الانتظار فى آخر فتراته ، كان عادة ما يغادر الكلية وقد تغاضى عن الكثير من محاضراته والتزاماته فيها ، غير أنها حياته الجديدة حاملة الحب التى جعلته يترقب خطواتها للميترو حيث طريق عودتها فيختلس اليها نظراته يتبعها بقدميه يبغى مصاحبتها حتى يفوز فى نهاية الأمر بذلك ، كم أحب تلك الوقفة على رصيف الميترو ينتظر واياها قدومه الذى كثيرا ما تمنى تأخره ، يقول فتبتسم وتقول فيقابل الابتسامة بابتسامات ، يسألها فتجيب وتسأله فيجيب الاجابة بإجابات:

-كنت أنوى التحويل من الكلية بعد انتهاء هذا العام!

قالها وقد انتواها بالفعل قبل معرفته بها غير أنها الفكرة التى اغتالها حبه لها ورغبته الدائمة فى التواجد الى جوارها يأتيه ردها:

-لا تفعل ، نريدك معنا!

ود ساعتها لو قال لها إننى أريدك فقط دون العالم غير انه صمت فأتاه استطرادها:

-انظر دائما الى نصف الكوب الممتلئ!

سمعها ورددها فى نفسه مرارا (نصف الكوب الممتلئ) ، لم يكن يعلم ساعتها أن الكلمة ستعيش معه اعواما طوال ، كم هو بارع هذا الفارس ذو الحرفين فى حفر نقوش الكلمات وتخليد عزف الألحان فى ذكريات الاسرى فى سجونه ، لم يعد يرَ من الكوب امتلاءا الا بوجودها ولا يشعر منه ارتواء الا بكلماتها ، تمضى بهم عربة المترو يحثها قلبه على الابطاء فتأبى ويستعطفها حبه بالتوقف فترفض ، تهبط أخيرا مودعة اياه باشارة يدها باسمة فى تكلف فيبادلها الوداع والابتسام دون تكلف وقد تمنى لو صحبها يغطيها بغطاء من ذهب فلا يراها غيره ولا يسمعها إلاه وفى رأسه سؤال يتردد (هل تغادرحياته بهذه السرعة التى غادرت بها عربته؟ ، أم تكمل الى جاوره طريقا واحدا حتى نهاية سفر قطار الحياة؟!)

١٠-اشارات لم تُفهم!

أدرك الآن أنها بطلة حلمه القديم ، عازفة الكمان لم تكن حلما شاكسه به عقله الباطن كما ظن ، هو الآن فى صراع مع حلمه حول بطلته ، يريد حلمه خطفها الى حيث لا يجدها مظللة بأغصانه ، ويأبى هو الا القتال لبقائها مستظلة بالأغصان متسربلة بألحان كمانها فيقضى عمره كاملا راجيا عطف الكمان وصاحبته ، استمرت الأحاديث واستمر توطيد العلاقة حتى أنه كثيرا ما فكر فى مصارحتها بما يكنه لها ثم لا يلبث أن يتراجع محبذا الانتظار حتى بلوغه منزلة من المثالية تستحقها فيه ، غير أنه كثيرا ما فشل فى كبح جماح لسانه حين يحادثها ، وجد نفسه مرة سائلا اياها:

-هل لى بسؤالك عن شئ يا ليلى؟

-سل يا أمجد ما بدا لك؟

-لو أن لتاجر جوهرة هى الأغلى بين جميع مقتنياته ، ثم أراد استغلالها فى تجارة أكبر تدر عليه سعادة أكبر ، هل يكمل خطوته أم يتراجع ويحتفظ بالجوهرة مكانها خشية ضياعها كلية؟

-ممم ، لست أفهم على وجه التحديد مقصدك ، لكن أظنه وحده من يملك القدرة على الاختيار

كم تمنى ساعتها لو قال لها أنك جوهرتى أريد الاقتراب منك أكثر غير أنى أخاف فقدانك حتى كصديقتى ان أنت رفضتى وجودك ملكة فى مملكتى.

ملكة!

هكذا باتت تسميته الدائمة لها ، كان يعنى ملكة قلبه فلا يحس غيرها من الجوارى ، وملكة سمعه فلا يسمع غيرها من الوصيفات ، وملكة بصره فلا يرى غيرها من الخادمات ، عنى كل ذلك ولم تفهم منه أيا من ذلك ، كل كلمة فى أحاديثه لها كانت تعنى الكثير ، غير أنها ظلت دائما....إشارات لا تُفهم!

١١-صدمة من جديد!

أصبح همه الأول الآن العمل على اصلاح كل قصور يراه فى نفسه ، رآها لا تستحق الا شخصا يستوى على عرش المثالية ملكا ويرتدى حُلىَ الكمال تيجانا ، نجح مرة وفشل مرات ، استطاع مرة وأخفق مرات ، لكنه ...ظل يحاول!

قرر أخيرا استشارة أخته (زينة) فى الأمر ، هى أخته وصديقتها المقربة ، أراد منها معرفة كل شئ تحبه فيسارع الى فعله ، وكل شئ تبغضه فيجتنب حتى مجرد الاقتراب منه ، أراد حين تجئ تلك اللحظة التى يصارحها فيها بحبه أن تراه ذلك الحريص على ما تحب البعيد عن ما تكره ، أرادها تراه مليكها كما يراها مليكته ، لو أنها أحبته جزءا من ألف من حبه لها ، لكان أسعد انسان ضمته أمه الأرض!

كانت تلك الليلة التى حادث فيها زينة ذات أثر بالغ فى مشواره ، رأته متغير الحال فسألته كعادتها عن سر تغيره:

-لست أراك على ما يرام فى الفترة الأخيرة ، ماذا هناك؟

-متغيرات جديدة طرأت على حياتى!

-وهى؟

-بإمكانك التخمين

-أظنه .... الحب!

-هو كذلك

-ومن تُراها تكون سعيدة الحظ؟

-ليلى!

-ليلى؟!

قالتها متفاجئة فشعر بمفاجئتها وان لم يرها عبر شاشة حاسوبه فكان رده:

-ماذا هناك؟

-ممم ، لا شئ ، لكن هل صارحتها بذلك؟

-ليس بعد ، أود سؤالك أولا ان كان بحياتها أحد.

-لا أعلم حقيقة ، لكنى أظن ذلك.

-تظنين ماذا؟

-هناك شاب يسبقنا بعام أو عامين فى الكلية ، أظن بينهما شيئا ما ، لكنى لست متأكدة!

قرأها عبر حاسوبه فانقبض صدره كأن غرابا أسودا قد وطأ على قلبه للتو مانعا عنه شرايين حبه التى تدفقت اليه عبر أسابيع ، لم يرد ، أغلق حاسوبه وقام الى فراش جافاه فيه النوم ، أتته صدمة أخرى من جديد!

١٢-على فراش المرض!

تتابعت الأيام بأمجد ومحبوبته على وتيرة واحدة ، حين يكون وحده يتذكر كلام زينة فيتملكه شعور الغريق الفاقد لأى آمال فى الانقاذ ، وحين يجتمعان تنسيه طلتها كل شئ كأنه قد اكتفى منها بهذه الطلات.

شهور مضت وعلاقتهما (كصديقين) قد توطدت بصورة لم يتخيلها هو وإن ارتاح لها ، باتت كهفا من كهوف أسراره التى لا يأتمن عليها دونها ، كان يشعر براحة غريبة مع كل كلمة تحمل مشاكله يقولها لها وكل رد يحمل سلوها تواسيه به ، كان يرى فى عادى مواساتها فضلا ، فى بسيط كلماتها شعرا ، فى خفيف بسماتها عطفا ، كثيرا ما سأل نفسه هل تكون عدسة حبه لها من صورت له عادى ردود الأفعال متضخما ملايين المرات؟ ، لا يهم ، لم يقف كثيرا عند السؤال وان حدثته نفسه أن ليس للمحب عيبا ان رأى من محبوبته كل التفاتة أو حركة أو سكنة شيئا تقصده به وان لم تكن كذلك ، يبقى ذلك دليلا على رغبته الملحة فى

تواصل الأرواح واتصال القلوب ، بل إنه كثيرا ما رأى منها مالم يره الآخرون ، لأنها فقط كانت لديه شيئا ذا رؤية تختلف عن هؤلاء الآخرين.

لم تكن نهاية العام الثالث تلك التى توقعها أمجد ، هاجمته بشدة وحوش مرضه اللعين فانقطع عن العالم فى فراشه ، كان يرى دموع أمه وان حاولت اخفائها عنه ، يسمع نحيب أخته وان اجتهدت فى استتارها منه ، يرى ويسمع كل شئ حول فراشه فيزداد يقينه ب.....الرحيل!

هل يرحل حقا محققا نبوءة الدموع وتكهنات النحيب؟ ، وان رحل ، هل تشعر ليلى ذات يومٍ أن هناك تحت التراب من أحب الحياة لأجل البقاء الى جوارها وهو الذى كثيرا ما تمنى الموتً قبل معرفته بها؟ ، هل تخبرها زينة بعد سنوات عن شاب رحل قديما أحبها كما لم يحب أحدا من خلق الله؟ ، وإن علمت ، هل تأتى الى قبره تذرف دمعتين على خديها البراقين مترحمة على محب مخلص؟ ، أم تنكر حبه مكتفية ببعض من كلمات يرددها لسانها فى نهايتها (الله يرحمه) ثم لا تلبث أن تعود لحياتها من جديد الى جوار حبيبها الذى أخبرته زينة به؟ ، إيــه يا ليلى ، كم سيفتقدك هذا المسكين ان رحل! ، توقع كثيرا نهايات مؤلمة لمشواير فى طرق حياته ، غير أنه أبدا لم يفكر فى بعد ملكته عن طريقه بهذه السرعة أو أنه بمعنى أقرب للدقة لم يشأ الانخراط فى توقع كهذا، لم يعد يريد من الحياة بعد علمه أنها لغيره الا نظرة أو كلمة أو ايماءة ، أراد بقائها الى جواره وحسب ، لم يكن هذا الدنئ الراغب فى تملك جسد من أحب ، لم يفكر بهذا لحظة وهو الذى استعاض عن رغبة الجسد باحتياج الروح ، كان يرى الحب أسمى من أن تقصره رؤى مرضى العقول على رغبات جسد لا يلبث أن يقضى رغبته فى دقائق ، لا يستحق الحب الا أن تتكفل باحتياجاته روح تهفو وقلب يعشق ، فهذان الساميان لا يفرغان من رغباتهما مدى الحياة ، فيظلان على التعلق بالمحبوب والاحتياج له حتى الممات.

الآن سيرحل رائيا صورتها تودعه ،وان لم يكن يتوقع أبدا أن يبعده عن ملكته...فراش المرض!

١٣-وهم!!

مضت به وبمرضه الأيام بطيئة وقد بات أسير فراشه وهو المعتاد طوال عشرين عاما قضاها بين الأحياء كطير لا يدخل وكنته الى للمبيت فلا تسعه طوال نهاره أربع جدران.

سأل عنه الكثيرون ولم تسأل ليلى فلم يشعر بلذة لسؤال السائلين، زاره الكثيرون ولم تزره فلم يشعر بقيمة لزيارة الزائرين ، زاده تجاهلها على مرضه مرضا فبات اليائس من شفاء قلبه وان شُفى جسده المسكين.

لم يكن متوقعا ذلك الاتصال الذى أتاه من صديقه بالجامعة يستأذنه ومعه مجموعة من أصدقاء الدفعة بزيارته بالمستشفى التى طالت رقدته بها ، تلقى الاتصال فاذا به يحس حياة جديدة دبَّت بين أوصاله ، حدثته نفسه أنها بالتأكيد بينهم ، تحسس ذقنه فإذا بمرضه قد زاد طولها طولا ، تلمَّس شعره فإذا بسقمه قد زاده على عشوائيته عشوائية ، حدثته نفسه أن ليس من المقبول أن تراه على هذه الحال ، تحامل على نفسه وقام الى مرآته مجاهدا نفسه يرتكز الى عكازه

وقد ظهرت ابتسامته للمرة الأولى منذ مرضه رغم ألمه الناتج عن وقفته ، همَّ بالعودة الى سريره كثيرا وقد آلمته وقفته بقوة لم يرها منذ أول أيام مرضه غير أنه ما ان يتذكر صورتها حتى تأتيه قوة مجهولة المصدر سائرة فى مفاصله أعانته على استمرار الوقوف حتى نهاية مهمته.

مضت دقائق الوقوف بطيئة على قلتها وعاد من جديد الى سريره مع صديقه العكاز ينتظر شمسا تضئ ظلام مرضه الذى طال ليله ، هاقد أقبل الجمع واحدا تلو الآخر ، بادل الجميع الابتسامة بثغره وقد غاب عنها عقله المنشغل بترقب وصولها حتى....أُغلق الباب ولم تأتِ بعد!

شعر برغبة جامحة فى الصراخ لمغلق الباب قائلا (انتظر مازال هناك من لم يأت بعد) ، غير أنه تراجع مطأطأ الرأس منشغلا مع زائريه بأحاديث استهلاكية قضى بها دقائقه حتى نهاية الزيارة وانصراف الجميع فشعر بذلك الصدى يتردد داخله قائلا (ربما منعها شئ ما)!

شعر برغبة شديدة فى سؤال زينة عن سبب عدم حضورها ، غير أن زحام الحضور قد منعه ، تبادلا نظرات أعقبها بنظرات للأسفل فى أسى لم يلحظها سواها فأشاحت عنه متعللة بالحديث الباسم بين الجميع ، تلقاها منها...وصمت.

رغبة أمجد الملحة فى وجود ليلى الى جانبه وان لم تكن من نصيبه جعلته ينكر أى فكرة تطرأ على ذهنه تهدد هذا القرب ولو على سبيل الصداقة ، لعله الخطأ الذى وقع فيه فلم يجعله رائيا للحقيقة الكاملة فى شعور ليلى به ، رأته صديقا ليس أكثر ، أو أنه حتى لم يكن فى مكان قريب من رأس القائمة ، هكذا كانت الحقيقة التى كثيرا ما ارتفعت نبراتها فى ذهنه مرات ومرات ، الا أنه كعادته....تغاضى عن نبراتها مستعيضا بنربات (الوهم).

استمرأت الأيام سريانها على أمجد وحبه دون تغيير الا من شوق لرؤيتها ولا تبديل الا من رغبة زاد الحاحها فى الحديث اليها ولو كلمات حتى أتم عمليته الجراحية الأخطر فى مشوار حياته والتى أوشك فيها على توديع دنياه لولا رحمة الأقدار به وبمحبيه ، حدَّث نفسه أن لابد للأقدار من مقصد من وراء تلك الرحمة ، لعلها ادخرته لشئ ما ، كم تمنى لو يكون ادخاره لحلم سيطرعلى آخر سنة فى مشواره كما لم يسيطر عليه حب شئ فى الوجود....كم تمنى لو أصبح زوجا لليلى الرائعة!

١٣-عودة!

مضت الأيام وخرج من المستشفى معافى الى منزله ومازال فى جسده بعض المرض (الاحساسى) قبل مرضه البدنى ،أيام باتت تفصله عن امتحانات آخر العام قضاها رغم مرضه بين أوراق كرهها تارة وبين جلسات لحاسوبه تارة اخرى رغم منع الأطباء له انتظارا لظهورها طامعا فى بعض من كلمات يقرأها على شاشته خطتها أناملها التى طالما عشق دقتها أو بعض من كلمات يكتبها الى نفس الشاشة تتبناها عيناها بالعطف تحميها من يأس الضياع.

هاقد ظهرت أخر الأمر فانتفضت تربة قلبه لما جاءها مطر الحب بمدده بعد انقطاع ، وجد نفسه بلا مقدمات لاجئا لشاشة حاسوبه بعينيه كأنه الأعمى قد أبصر للتو نور الحياة:

-ليلى كيف انتِ؟

-أمجد! ، كنت سأحادثك للتو ، حمدا لله على سلامتك!

-الله يسلمك!

-أعلم أنك متضايق لعدم زيارتى لك ، لكنى والله قد فوجئت بزينة قد قامت بالزيارة وحيدة بصحبة أخرين ولم تخبرنى بشئ.

تلقى الجملة بعينيه فاتسعت لمرآها حدقتا العينين استغرابا غير أن فرحته بالعودة لحديثها قد أنسته كل شئ كان يعكر صفوه بمكدرات البعد عنها فاستمرأ قوله:

-لا عليكى يا (ملكة) كيف حال الامتحانات؟

-بخير حال ، شد حيلك ، وان احتجت أى مساعدة فى أى شئ فلست بحاجة لإخبارك أنى هنا فى خدمتك.

قرأها فابتسم لها قلبه قبل ثغره واغتبطت لها عيناه قبل قسماته ، هل يسألها الآن هذا السؤال الذى شغل ذهنه لشهور منذ تلك الليلة حيث حديث مشئوم جمعه بزينة أخبرته فيه أن لحبيبته حبيبا آخر؟ ، ترى ما يكون رد فعلها؟ ، هل تنهره للتدخل فى شئونها؟ ، أم ترد بصدر رحب معهود وجوده بين الأصدقاء؟ ، هل تؤكد قول صديقتها أم تسخر له وتنكره؟ ، هل تفهم ما وراء سؤاله من اشارات أم تظل على حالها ناظرة له نظرات لم تصل بعد لمرحلة طالت شهور حلمه بالمبيت فى دفئ أحضانها؟

أفكار عدة تشاجرت فى ميدان رأسه للحظات وقد حارت يداه بين السؤال والتراجع عنه كطفلة ترددت فى قرار تتخذه دون علم أمها تستمر فيه أم تتراجع عنه:

-ليلى هل لى بسؤال؟

كتبها أخيرا وقد انتصرت إحدى الرغبتين على الأخرى يأتيه ردها:

-طبعا يا أمجد ، تفضل.

-لن تغضبى؟

-أمُغضب سؤالك؟

-قالتها مازحة فأتاها رده:

-هل ، هل أحببتى أحدا قبل الآن؟

ردت بابتسامة دون رد ثم تبعتها بقولها:

-وهل هذا هو السؤال الذى توجست منه الى هذا الحد؟ ، لا يا سيدى لم أحب أحدا قبل الآن!

لعلها أول المرات التى يداخله فيها مثل هذا الشعور الضام لمتناقض الاحساسات ، أكثر لحظات حياته سعادة لان خوفا تملكه شهور بات سرابا لا وجود له ، وأكثر لحظات حياته تعجبا لأن زينة أخبرته بشئ لم يكن له من الاساس وجود.

زينة! ، تمثلت له صورتها باهتة تضئ وتخفت كقنديل يلفظ آخر أنفاسه فى حارة قديمة انهكها المرض ، لا تملك صورتها على أسئلته لها أى ردود ، تُرى لماذا لم تخبرها وقت أن جاءت لزيارته؟ ، ترى ما يدفعها لإخباره بقصة هذا الحبيب الوهمى؟ ، لكن مهلا ، ماذا ان كانت زينة على حق؟ ، ماذا ان علمت منها أنها أبدا لم تفكر فيك كحبيب فآثرت زينة تأليف هذه الحكاية حتى لا تقتله بكلماتها وهى العالمة مقدار ما تملَّك قلبه من حبها ، ماذا ان كان ما ذكرته له حقيقة لكن ليلى غير مريدة لاطلاعك على أدق أسرارها؟ ، زينة أخته ولن تفكر لحظة فى ايذائه بأى حال من الأحوال ، ربما أرادت ابعادك عن طريق رأت آخره وهما لا رجاء فيه هكذا حدثته نفسه فأنكر سؤالها ، لا لشئ الا لأنه قد أراد من ليلى اجابتها بنفى حبها عن آخر وحسب...حتى وان لم تكن الإجابة الأصوب ، أيهما المصيب وأيهما المخطئ فلم يشغل نفسه كثيرا بالإجابات ، الأهم الآن أن هذه الإجابة قد شهدت عودته من جديد للحياة.

١٤-خطأ لا غفران فيه!

بات الآن يعد ساعات النهار عدّا شغوفا بساعات الليل التى يراها قد أضاءت الشبكة العنكبوتية ببريق حضورها فتطول بهما الأحاديث ، تردد كثيرا فى مصارحتها بحبه وهو الذى لم يعد بعد قادرا على كتمانه أكثر من ذلك بعدما ضاق به صدره حامل السر لأكثر من عام.

مضت به أسابيع امتحاناته وما بعدها على نفس الحال الجبانة لا يستطيع لحبه كشفا بلسانه وان كشفته كل حركاته وسكناته ، تملكه خوف غريب من نوعه فى فقدانها حتى كصديقة ان هى رفضت كونها ملكة على عرش قلبه المسكين ، حتى جاءت أخيرا تلك اللحظة التى قرر فيها البوح بكل شئ.

دخل كعادته يتفقد الجديد على شبكة الانترنت بعد عودته من زيارة الطبيب الذى أخبره أن نفس المرض قد أعدَّ عدته يستعد لهجمة أخرى على جسده ، رأى دموع أمه حين قالها ولحظ يأس أبيه حين نُطِقت ، هل تكون النهاية بهذا الشكل السريع؟ ، هل يرحل الى هؤلاء الراقدين تحت التراب بانتظاره؟ ، وليلى؟ ، هل يرحل دون إخبارها بكل ما مضى فتضيع ذكراه فى خضم الحياة وزحامها؟

فتح حاسوبه فإذا بعينيه تُذهلان ويداه قد توقفت عن قدرتها فى فعل أى شئ ، أغلق حاسوبه وفتحه عدة مرات لعل فى الأمر خطأ ما ، غير أن النتيجة دائما ما كانت واحدة ، حذفته ليلى من قائمة أصدقائها ، أو بالأحرى....حذفته من حياتها ككل!

صار كأسد جريح خُطف من براح الغابات لضيق الأقفاص فعلى زئيره دون مجيب يوشك أن تنفجر حنجرته وتتفتت أكباده دون فائدة ، أرسل لها مستفسرا عن السبب فجاءه ردها بطيئا يقول (أمجد ، أعلم ما تفكر فيه ، لكن عذرا لست المناسبة لك ، سيرزقك الله دون شك من تستحقها....أختك ليلى!).

قرأ فكذَّب عينيه ، أعاد القراءة فأنكر ملفوظها على شفتيه ، كرر الثالثة فتغاضت عن التكرار روحه بين جنبيه ، للمرة الأولى منذ رحيل أصدقائه يشعر بذلك السائل الساخن على خديه يسيل دون أدنى مقاومة من جفنيه وما يضمان من مُقَل ، هل حقا تحقق ما رآه فى حلمه واختفت من حياته للأبد عازفة الكمان؟ ، هل يكون ما هو فيه حلم آخر يشاكسه به عقله الباطن سيستيقظ منه بعد لحظات على مصباح صغير لعين فى سقف حجرته؟ ، مضت اللحظات فلم يستيقظ ، مضت اللحظات فأيقن أن ساعته تلك قد حملت له تفاصيل حلمه قبل عام على أرض واقعه.

أقنع نفسه أنه مازال هناك أمل فى الاحتفاظ بها حتى كصديقة تعينه على عقبات أيامه ، يكفيه منها كلمة مواساة عند الشدة وكلمة تشجيع عند الفرح كما اعتاد منها دائما ، يكفيه منها ضحكة ملائكية عند (قفشة) يقولها أو اطراء ملكى على خاطرة كتبها ، يكفيه منها....أى شئ!

وجد نفسه ينكر (تهمة) الحب عن نفسه بشكل استغربه هو نفسه:

-ليلى ، لابد أن فى الأمر خطأ ما ، لم أفكر يوما فيما تقولين!

-أنت تكذب يا أمجد!

تلقى الكلمة فوجد نفسه كأن شيطانا سكنه فلم يدرِ بنفسه الا كاتبا:

-عيشى الوهم يا آنسة ، ما يدور فى ذهنك ليس الا خيالات!

-أنت انسان غير محترم.

-وأنت ....

لم يدرك معنى هذه الكلمة الأخيرة الا بعد كتابتها ، هل حقا سبَّها؟ ، هل حقا انطلق لسانه فى أكثر من أحب من بنى البشر؟ ، هل حقا نجح شيطانه فى إنهاء الأمر على هذا النحو؟ ، هل وهل وهل ، أسئلة كُثر أدارت معركة طاحنة فى رأسه كادت تفجره وهو يرى ردها الأخير:

-حسبى الله ونعم الوكيل!

ظل دون حراك يعيد قراءة الحديث ما يقارب النصف ساعة دون حديث أو حركة ، رأى دموعها من خلف شاشته تسيلان على خديها النضرين فلعن نفسه كما لم يلعن شيئا من قبل ، لولا أن الانتحار محرم فى شريعته لقام من فوره يعاقب نفسه على الخطأ الأشنع فى حياته بارسالها للجحيم ، كيف له أن يكون سببا فى تعاستها لحظة وهو الحالم لعام كامل بتنصيبها ملكة على عرش حياته؟ ، سأل نفسه هل بكت ليلى الجميلة حقا بسببه؟ ، هل رأت عيناها منه حقا ما جعلها على هذه الحال التى تخيلها فيها؟ ، كم كان قاسيا بلا رحمة ، ومع من ، مع

الانسانة الأغلى فى سنوات عمره العشرين ، ربما كان خبر اقترابه من الموت من باب مرضه العائد من جديد ذا دور فى كونه على هذه الحال من العصبية ، ربما كان شعوره أن ضياعها هو ضياعٌ لآخر خيط يربطه بدنيا الآدميين ، ربما وربما وربما ، لم يعد ذلك ذا أهمية بأى حال من الأحوال ، ليس للفتاة المسكينة دخلٌ بموته أو ضياع آماله أو حتى ذهابه للجحيم.

على الفور وجد نفسه باعثا اليها برسالة اعتذار ، اعتذار عن انكار (تهمة الحب) عن نفسه واعتذار على انطلاق لسانه اليها بما كرهه هو قبل أن تكرهه ، لم يدقق النظر فى أى معانيها أو يراجع ايا من كلماتها بعد الكتابة ، كتبها دون تجهيز أو تقديم أو حتى ترتيب للكلمات وتنسيق للجمل ، كتب وكتب وكتب كما لم يكتب لأحد من قبل ، كلمات كأنها المخطوطة بدموع عينيه على ألواح قلبه الشاعر بذنب ولد آدم قاتل أخيه ، مضت الساعات ولم ترد رسالته ، طال به الانتظار ولم يظفر منها برد يشعره أنها سامحته ولو بجزء بسيط حتى استسلم أخيرا للنوم!

وجد نفسه مارا بطريق ضيق مظلم يضيئه من بعيد ضوء خافت لمصباح قديم وتحته تجلس ملكته حاضنة كمانها تتصاعد من أوتاره معزوفات ذات تأثير خلاب ، ظل يراقبها من بعيد متخوف من ضياعها ان هو اقترب حتى هزمته عاطفته آخر الأمر فاقترب بحذر حتى اطمأن لبسمة أرسلتها له ، شجعته بابتسامتها فاقترب ، شجعته بضحكاتها أكثر فازداد اقترابه ، تناول منها الكمان متفقدا اياه حتى انقطعت الأوتار فجأة فى يده ، ظل باهتا دون حراك لا يعلم ماذا يفعل وقد نظر اليها فوجد ابتسامتها قد تحولت لفزع ارتسم على ملامحها وضحكاتها قد انقلبت بكاء مزق نياط قلبه ، حاول الاعتذار فلم يسعفه لسانه ، حاول الاقتراب أكثر ففوجئ بها.....تختفى!

استيقظ من نومه ومازالت صورتها وصورة كمانها تسكنان مخيلته ، فقام الى بريده يتفقده فإذا به يرى ردها المقتضب (ربنا يهديك يا أمجد)! ، علم ساعتها ان اعتذاره لم يُقبل ، أغلق بريده ونظر للاشئ فى أفقٍ بعيد وقد بدت صورتها فى سماء مظلمة تبكى ناظرة اليه بعينين كادتا تذهبان به الى عالم الأموات ندما ، علم الآن أن خطأه لم يكن أبدا مستحق الغفران!

١٥-الراقصان على القبور!

فوجئ أمجد تلك الليلة وهو بانتظار رد ليلى على اعتذاره بزينه تحادثه فى شدة لم يعهدها منها قبل الآن:

-أمجد! ، كيف لك بمثل ما فعلت؟

-زينة ، لا أعلم ماذا حدث ، أشعر كأنى راغب فى الانتحار عقابا لنفسى ، هل...هل لكى بالتوسط لى عندها لتقبل الاعتذار؟

-اعتذار عن أى شئ يا أمجد؟ ، لقد ارتكبت أبشع جرائمك للتو؟

-ولهذا أرغب حقا فى الاعتذار ، خير الخطائين التوابون!

-فات الوقت يا عزيزى ، ذهبت ليلى ولن تعود ، وذهبت أنا أيضا ، لم نعد بعد صديقين!

قرأها فضحك ضحكا أقرب للبكاء سخرية من سذاجته ، الآن فقط فهم كل شئ ، حصلت زينة على ما تريده بابعاده عن محبوبته طوال عام كامل وان لم تنجح فهى فقد أهداها شيطانه منالها:

-أتعلمين يا زينة؟ ، سأصدقك قولا قد يكون الأخير بيننا ، اعلمى أنى لم أهتم فى حياتى لشئ الا هذه الفتاة التى تتاجرين بصداقتها الآن لأجل شئ لا أعلمه ، يسعدنى انتهاء علاقتى بك على هذا النحو ، لن أندم على لحظة واحدة قضيتها فى كنف صداقتك الزائفة ، أتعلمين أيضا؟ ، الآن أسأل نفسى سؤالا لابد منه ، كيف لمثل ليلى أن تكون صديقة لمثلك؟ ، كم هى عجيبة هذه الدنيا ومنطقها أشد العجب ، تجمع الثرى بالثريا على نحو لا يصلح الاجتماع فيه ، على كل حال ، اعلمى أن كلمة واحدة قالتها لى ليلى توازى كل ما قيل لى على لسانك منذ أول لقاء لى بك ، فقط لأن الفرق بينكما جدُ كبير!

-لم يعد كلامك ذا أهمية الأن لأى منا ، فكر كما تريد وزن الأمور كما تريد ، لم يعد لى شأن بسخافاتك بعد الآن.

-بل لا شأن لك بأى شئ؟ ، أين أنت من عذاب عام كامل لا همَّ لى فيه الا اكتساب بعضٍ من عطف ليلى علىّ ولو برد السلام؟ ، كلكم ترقصون رقصة الأبطال الزائفين على جرح فتاة مسكينة ظفرها أكثر نقاء منكم ، وذات الرقصة على قبر حلم لفتى مسكين مازال يعانى عقبات العجائز فى سن الشباب؟ ، أين أنتى من كل ما حدث لى أو لها؟ ، اللعنة على الجميع سواها!

١٦-ما بعد الرحيل!

(أن تموت ومازلت فوق الأرض لا تحت ثراها) ، هكذا كان شعور أمجد بعد خروج روح قلبه ومازالت روح جسده على حالها بين جنبيه ، ترى كيف هى ألحان ليلى وكمانها الآن؟ ، هل دامعة كصاحبتها داعية عليه؟ ، هل غافرة ذنبه تحض صاحبتها على الغفران؟ ، أم تُراها...امتنعت تماما عن الخروج من كمانها الجميل.

أدرك أمجد الآن تلك الجملة التى سمعها قديما وأنكر على أصحابها (الحب من طرف واحد) ، كثيرا ما تساءل حين سمعها لماذا لا ينكر هؤلاء المحبين حبهم مادام من يحبون لا يبادلونهم نفس الشعور؟ ، الآن فقط عرف إجابة (لماذا) وقد بات من أعضاء الفريق الذى سأله قديما ذات يوم ، أن تحب أحدا يبادلك حبك أو حتى جزءا منه فهذا شعور جميل ، أما أن تحب أحدا لم يبادلك قط أى احساس بالحب فهذا شعور سامى ، وشتان بين الجمال والسمو!

لم يكن ذنب ليلى أنها لم تحبه ، ولم يكن ذنبه أنه أحبها ، عام كامل عرفها فيه فانكشفت له بواطنها الأنقى صورة من صفحات الأنهار ، حدثته نفسه أنه ليس هذا المستحق اقتناء مثلها ، تحتاج هذه الملكة لملك من مثل دماء ملوك الكمال الإنسانى وليس فردا من عامة شعوب

الانسانية تتخطفه أيامه من عقبة لتلقيه فى براثن غيرها ، رحلت الملكة الآن مع موكبها عن مملوكها بلا رجعة تاركة اياه أسير ذكريات مضت لا يملك لها الا الاحتفاظ بلحظاتها على اثمن رفوف ذاكرته الشابة العجوز والى جوارها...صورة ملكة رحلت قديما ذات يوم!

كانت بداية العام الرابع ذات اختلاف بعض الشئ لأمجد ، بات مشتتا بين الاختفاء عن عينيها هاربا من نظرات تلومه لن يستطيع احتمالها ، والظهور أمامها يبادلها نظرات الندم والاعتذار علها تغفر له ، وكأنه به سجين هارب يتردد فى العودة الى سجنه أو الضياع فى دوامات الحياة ، لم يهتم كثيرا بنظرات زينة الحادة حاملة الشماتة لم يعد يهتم بخسارة العبيد وقد خسر الملكة وعرشها للأبد ، غير أنه أبدا لم يفقد الأمل فى يوم قادم يحمل غفرانها لاعتذاره حين يجدد الاعتذار!

١٧-نجاح ينقصه شئ ما!

مضت به أيامه على وتيرة واحدة لا تغيير فيها الا من لجوئه الى أوراقه وأقلامه ، لم يجد من الآذان ما يصغى لآلامه الا تلك الأوراق ولا من الأفواه ما يواسيه الا هذه الأقلام ، كتب وكتب وطالت ساعات كتاباته ، يرى نظرتها فتلهمه بخاطرة ، يلمح بسمتها فتوحى له بتدوينة ، مرت على كتاباته الشهور وأركان حجرته قد امتلأت بأوراقه حاضنة تدويناته وخواطره ، مضت الشهور ونظرتها له بدأت فى التغيير شيئا فشيئا ، من مجرد لوم أحسه فى أول لقاء أعقب تلك الليلة الى كره بيِّن بدأ فى استعمار عينين طالما عشق طلاتهما ، تُرى ما سر هذا التحول العجيب فى النظرات الذى شعر به؟ ، أى شئ قيل لها حوَّل النظرات هذا التحول العجيب؟ ، أى شئ رأته منه كان سببا فى احتلال الكره المقدار البسيط من الانسانية الباقى بينهما ، هل حادثتها زينة بشأن شئ ما هو برئ منه؟ ، اللعنة! ، كم هو صعب هذا الشعور ، أن تُتهم وأنت البرئ ، أن يكرهك أكثر من أحببت فى عالم البشريين ، هل يهرول اليها داعيا اياها لحوار يعتذر فيه عن كل شئ من جديد؟ ، لم يعد يريد من الدنيا الا أن تعود صورته فى ذهنها على نقاءها القديم أو حتى جزء منه وان لم تُرد ملازمته طريق أيامه.

خواطر عدة زاد اشتباكها فى رأسه فأفضى بها الى أوراقه عن طريق مرسال قلمه الجريح ، تزايدت لديه الأوراق فوجد عنده فى نهاية الأمر رواية كاملة ، لم يذكر فى الرواية أيا من مواقفه مع محبوبته وان قصدها فيها بكل شئ جميل ، لو ذكر ابتسامة بطلة يستحضر صورتها تبتسم ، وان ذكر للبطلة دموعا فلا يجد أصفى من صفحة خديها حين البكاء فيصفها بقلمه فى صورة بطلته من عالم الخيال ، لو ضمت ورقته تفتيح زهرة فهى بالتأكيد ضحكة ليلى ، لو حوت صفاء سماء فهى بالطبع نفس ليلى ، لو ذكرت لمعان نجوم فهى من دون شك...عينى ليلى البراقتين.

رواية أمجد الأولى كانت ذا قيمة خاصة بالنسبة له لم يُطلع عليها أحدا من قرائها وإن كانوا أقرب أصدقائه اليه ، جعل بطلها يعانى كما لم يعانى أحدُ من أبطال الروايات ، أراد تعليم نفسه شيئا جديدا ، أن الحياة مليئة بمصاعب تفوق كثيرا ما عاناه أو ما يعانيه أو سيعانيه ، بين سكان الحياة كثيرون يعانون أضعاف معاناته ، معاناة يتيم لا يجد وأمه قوت يومهما ، معاناة

رجل أبعدته دنياه عن كل محبيه فلم يلبث أن بات فى طرقات الدنيا وحيد الخطوات ، معاناة عجوز انقت به أيام شيخوخته بين ندم على أخطاء ماضٍ بائس ووحدة فى أحضان حاضر أشد بؤسا ، معاناة ومعاناة ومعاناة قضاها صاحبها جميعا ثابت الخطى بائس القوى حتى انقضت به حياته الى موته ، هكذا علم أمجد نفسه بنفسه ، هكذا كان المعلم والتلميذ ، هكذا...حقق النجاح!

صدرت روايته وتغيرت رؤيته للحياة تماما بعد عام كامل من التخبط فى ظلمات اليأس ، توالت عليه أخبار نجاحه فساهمت فى بعض برودة لنيران أشعلتها جمرات شهور عام كامل ، لقاء تليفزيونى يُطلب له ، تقرير فى جريدة يُطلب منه ، سفر لروايته فى بلدان عدة ، نجاح أحس طعمه أخيرا بعد غياب غيَّر رؤيته للحياة وأهلها ، غير أنه دائما ما تمنى وجودها الى جانبه فى توقيت انتصاره كما كانت دائما الى جواره فى لحظات اكساره ، لم يشعر بنجاحه كاملا قط فى غيابها عن عالمه ، يتذكرها فيشعر دوما أن نجاحه...ينقصه شئ ما!

١٨-لم يعد هناك لقاء آخر!

حين صدرت رواية أمجد الأولى وجد نفسه بغير وعى يدخَّر إحدى النسخ الأولى خروجا من المطبعة كاتبا عليها إهداء من نوع خاص:

(لا أعلم ان كانت تلك الكلمات جديرة بلقب الاهداء أم لا...قد أسلم بتسميتها اهداء ان ملكت الثقة أن صاحب الاهداء سيقبل هدية كاتبه الذى نظر اليه يوما كركن أساسى بين جدران أيامه...أما وأنا الجاهل لمصير اهدائى ذلك على مسامع من هاديته...فلا أملك وأنا جاهل المصير الا نهاية لتلك الصفحات بين يديه...علَّ أقدارنا تقضى بخطوات أقدامنا نرسمها على تراب درب واحد يجمعنا للقاء ذات يوم فى مستقبلنا القريب أو البعيد...لا أعلم ان كان لقاءنا نحظى به فى قادم أيام مستقبلنا القريب أم حين ترسم ريشة الشيب لوحتها فى رؤوس الجميع...كل ما أتمناه فقط أن يلقى ثغر كلينا وجه الآخر بابتسامة متبوعة ببعض كلمات السلام...اما اذا بخلت علينا الأيام بمثل ذلك اللقاء فعله يذكرنى بخير حين تقع علي كتابى عيناه على رف من رفوف بيته ذات يوم فى قادم السنوات....أمجد!)

كتب الإهداء ، أغلق الرواية ، نظر اليها حينا يستعيد بعضا من ذكريات ثم نحاها جانبا فى درج خاص بمكتبه ، هل حقا سيعطيها لها؟ ، لا لا ، سترفضها وتحرجه بالتأكيد ، الأفضل أن يرسلها لها مع وسيط أهل ثقة ، هكذا حدَّث نفسه وقد دار فى ذهنه شريط طويل من صور أصدقائه حتى برزت من بينهم صورة صديقه رامى ، هو بالتأكيد الخيار المناسب ، تعتبره ليلى من أصدقائها أيضا وستتلقى منه الأمر بصورة أكثر هدوءا عن تلقيها من غيره ، لكن ماذا ان رفضتها أيضا من رامى؟ ، لا بأس سيرسلها وليكن ما يكون ، هكذا فكر وهكذا قرر وهكذا عمل على تنفيذ قراره:

-أريد منك ايصال هذه النسخة من روايتى لليلى!

-مازلت تفكر بها؟ ، كم أنت ساذج.

-لم يعد هذا وقت اللوم ، لكن اسمع أريد منك ايصالها لها بعد عام من الآن!

-ماذا؟ ، عام؟ ، لماذا؟

-ليلى الآن تكرهنى كأن لم تكره أحدا من قبل ، هى حتى لا تطيق النظر فى وجهى ، آخر أيام امتحانات هذا العام سيكون آخر عهدها بى ، ستوقن حينها أنى لم أعد أريد منها الا عودة صورتى نقية فى ذهنها ، ايصالى هذا الكتاب لها الآن قد يجعلها تظن أنى اتخذه حجة للعودة لكنفها من جديد!

-دعها تظن ما تظن يا رجل ما يضيرك وقد أصبحت انسانا ناجحا من فتاة لا تملك لك نفعا ولا ضرر ، هذا غباء!

-رامى...افعل فقط ما أطلبه منك دون نصائح ، ليلى بالنسبة لى قيمة تزيد عن أى قيمة أخرى سواها ، على كل حال لن يكون عليك الحديث اليها كثيرا حين تسلمها الكتاب ، سأبعث لها برسالة حينها أشرح فيها كل شئ!

تلقى رامى الكتاب ناظرا لصديقه نظرة أظلتها ابتسامة ساخرة قائلا:

-حسنا ، كما تريد يا قيس!

مضت شهور العام بطيئة كأنها تُجر بسلحفاة ، كل يوم كان يحمل لأمجد نجاحا جديدا من ناحية وألما لا يحسه غيره من نظرات ليلى حاملة اللوم والكراهية من ناحية أخرى ، هاقد أطل آخر أيام امتحانات عامهما الأخير حاملا له الحدث الأهم الذى انتظره كثيرا ، أتاه رامى بعد الامتحان وعلى وجهه علامات البؤس يأتيه رد أمجد فى لهفة:

-ها؟ ، أعطيتها الكتاب؟

-لم تقبله!

تلقاها أمجد دون رد فاقترب منه صديقه يربت على كتفه مستطردا:

-على كل حال لقد أخبرتها بشأن رسالتك اليها قد ترد فى أى وقت!

استمر صمت أمجد فاستمرأ رامى قوله:

-هيا يا رجل ، لم يعد هناك منها ما يبكيك وقد فعلت ما عليك ، العالم ملئ بالفتيات!

-لسن كليلى ، لم أرد منها أكثر من صورتى تنصلح فى ذهنها ليس أكثر.

-وقد رفضت ، فليذهب الأمر برمته الى الجحيم إذن!

تلقى أمجد قول رامى بتنهيدة حارة حملت كل معانى الحزن متبعا اياها بقوله:

-أبدا لن تفهم من الأمر شئ يا رامى ، أبدا لن تفهم منه شئ!

قالها وانصرف الى منزله وفى رأسه تشابكت خيوط أمور كُثر وصور أكثر ، انه اليوم الأخير الذى يراها فيه ، هل حقا يدرك هذه الحقيقة؟ ، ودَّ ساعتها لو عاد لمحراب كليته ينظر اليها من خلف ستار يملئ عينيه بنور طلعتها لآخر المرات ، غير أن شيئا ما منعه من القاء آخر نظراته ، نظر خلفه طويلا فى هذا الشارع المفضى الى المترو وأمامه بوابة كليته الشاهدة على ميلاد ووفاة العلاقة الأقوى تأثيرا فى حياته ، أطال نظرته وعاد من جديد لخطواته نحو باب المترو... لم يعد هناك لقاء آخر.

١٩-الحديث الأخير!

عاد أمجد لمنزله مشتت الفكر حائرا ولم يغادره لحظة أمل عطفها عليه برد ولو متكلف تزيل عنه بعضا مما هو فيه ، انتظر ساعة فلم ترد ، ساعة أخرى فلم ترد ، ساعات وساعات ومازال غير ظافر برد فتملكه يأسه كما لم يتملكه من قبل حتى فى أحلك لحظاته.

أوشك على الخلود الى النوم وهمَّ بإغلاق حاسوبه قبل أن يفاجئ برسالة جديدة خفق لها قلبه خفقان الشاعر بريحة من مجدَّها شعره كثيرا:

-هل حقا تعنى هذا الاعتذار الذى ذكرته فى رسالتك يا أمجد؟

-لو لم أعيه ما ذكرته ولا كررته عشرات المرات يا ليلى.

-لقد أهنتنى وأنا التى لم أضيرك فى شئ طوال معرفتى بك.

-ولهذا أعتذر ، أقسم أن أيا من لحظات عامىَّ السابقين منذ ليلة الرحيل لم تخلو من الندم.

-أترى يا أمجد لو أن لوح زجاج كُسِر ، هل يعود لحاله من جديد؟ ، هكذا أنت بالنسبة لى.

-لم يعد هناك أمل فى السماح إذن؟ ، أنا على استعداد يا ليلى لفعل أى شئ تطلبينه.

-لم أعد طالبة أى شئ غير نسيانى ، حتى اسمى لم يعد من الضرورى ذكره فى أى مناسبة ، يكفينى ما قلته عنى طوال هذه الفترة.

تلقى الجملة واجما فى استغراب ، الآن أيقن أن هذه الراقصة على القبور قد حشت أذنيها البريئتين بأكاذيب هو منها برئ.

-ما قلته عنك؟ ، ماذا تقصدين؟ ، لسانى لم ينلك الا بكل خير فى أى مناسبة.

-لا بأس ، لم أعد ذات رغبة فى مناقشة ما فات ، وفقك الله فى حياتك القادمة.

-سامحتنى؟

-اعتبر الأمر كذلك ، لم أكره أحدا فى حياتى ولن يكون!

أرضته منها هذه الإجابة وقد شعر أن روحها الصافية قد ناله منها بعض الرضى أخيرا بعد عامين كاملين قبل أن ينتبه لقولها من جديد:

-كل ما أريده منك الآن نسيانى للأبد.

كم آلمته هذه الكلمة (نسيان) ، هل ينساها بهذه السهولة وهى الشخص الأهم فى مشوار اثنين وعشرين عاما؟ ، تغاضى عن الكلمة ووعدها بالنسيان وان كان على ثقة أنه لن يقدر على تنفيذ وعده:

-أعدك يا ليلى ، أعدك!

انتهى بينهما الحديث أخيرا ، هاقد أتى الرد الذى انتظره عامين كاملين ، أخذ يكرر قراءته مرة بعد مرة كأنه يتعلق بأى شئ من رائحتها وان كانت رسالة الوداع ، أحس براحة شديدة تتملكه وهو يغلق حاسوبه ويخلد لنوم هو على ثقة أنها لأحلامه فيه زائرة ، أغلق جفنيه أخيرا وأمام عينيه تتراقص كلمات انتظرها سنتين...كلمات الحديث الأخير يخبره أنها مازالت موجودة بين جنبيه يراها ملهمته رغم كل ماكان.

مازلت أراكى بنَّاء يبنى مملكتى بالنور

مازلتى بقلبى لؤلؤة يكسوها لمع البلور

مازلتى بحقلى عصفورا يلتقط العشق المنثور

مازال بناءك واللمعان وعشقك نورى المسجور

وجهك لازال بدولته عَلَما أخَّاذا مشهور

مازال الذاكر عينيكى قمرا فى الليل المستور

مازال العاشق شفتيكى ناطقة الكلم المبرور

هل يأتى القدر بعينيكى؟

أو يرجع دقة شفتيكى؟

انتظر العاشق أعواما الرحمة قدرى المقدور

لم يختر ابدا هجرانا كان الولهان المأمور

يأمره الحب فيأتمر ولعا بالأمر ومسرور

مازال وفائى للماضى سيف الإخلاص المسلول

مازال الطيف بأذهانى يلمع كالذهب المصقول

مازلتى العازف نغماتى

مازلتى الناطق كلماتى

نغما كالقارب يتهادى سبحا فى الكلم المعسول

كم فات الآن من البعد كم عانى القلب المهجور

كم بات يحاول إصلاحا لوح الأشواق المكسور

آه سيدتى قد شبنا وتجعد وجهى الموتور

قد مر العمر بأعيننا وافتقد الحقل العصفور

تاهت بالقلب لآليك خفتت أنوار البلور

أعوامُ مرت بكلينا والحب بعينى منظور

يبنى للقاءك آمالا سرقتها أعوامُ وشهور

لا يدرى أكان بما مرَّ معذورا أو لا معذور

سيدتى الراحلة أعيدى روحا لفؤاد قد ثار

لم يسمع أحدُ ثورته خبأها بين الأغوار

لم يعد الفارس برحيلك ذاك المقدام المغوار

افتقد السيفَ وأدرعه بات الحطَّاب النجار

يقضى الساعات بغاباتٍ يصطحب فروع الأشجار

والفأس بيده بكَّاءُ يحصى خطوات الأسفار

قد بات يناجى أحلاما وأدتها دروب الأعمار

قيلت لرحيلك أشعارُ عُزفت لحنينك أوتار

للفارس عودى سيدتى يجمعكم درب المشوار

كل شئ ما زال هنا ، الكمان المُلقى فى ركن حجرته اشتراه قبل الآن بعامين رغم عدم علمه حتى بطريقة عمله ، الأوراق كلها حاملة خواطره بشأنها فى درج مكتبه ، نافذته الشاهدة على حبه التى طالما حوت لوحاته بأصابعه على صفحة شكلها رزاز الأمطار ، رسائلها القديمة فى صندوق بريده الالكترونى بعمر عامين أو يزيد ، كل شئ لا زال محافظا على كامل رونقه ، لملم كل شئ فى حقيبته التى اعدها للسفر ، حملها واستعد للمغادرة ، القى نظرة سريعة على كل شئ قبل أن...يغادر من جديد.

لم يكن مرور عام إضافى ليحمل لذلك الكاتب الا نجاحا هو نفسه لم يتوقعه ، اصدر روايته الثانية ، تُرجمت روايته الأولى ، الاحاديث التليفزيونية والأخبار الصحفية لم تنقطع ، غير أنه كعادته كان يحس نقصا ما ، لم يعد قادرا على الوفاء بعهد النسيان ، صورتها تفرض نفسها على كل مظاهر نجاحه ، كأنها بها تخبره أن بعض الفشل مازال عالقا بثوبه فى عدم نيلها ، آه يا ليلى ، كم هى قاسية تلك الصورة الرافضة مغادرة معرض ذكرياته الكبير ، الأغنية الأولى ، الحديث الأول ، القهوة الأولى ، الرواية الأولى ، الأمنية الأولى ، كل أول فى علاقته بها مازال حاضرا رغم كل شئ ، هى فقط قسوة الماضى الرابض فى ميدان ذكرياته يرفض المغادرة...وسيظل على منهاج الرفض!

من جديد رتَّب القدر ترتيباته لذلك المسكين ، فوجئ ذات يوم بمسابقة لعزف الكمان تقيمها دار الأوبرا ، وجدها تصعد مسرح المسابقة ، تحتضن كمانها ، تغمض عينيها ، ثم تبدأ فى العزف ، تنتهى ، يشتعل المسرح بالتصفيق ، تنل جائزتها ، ثم تكمل سيرها بعد ذلك فى طريق النجاح البعيد عن روتينية الحياة العملية المقيتة ، وجد نفسه دون ارادة منه يبعث لها برسالة يخبرها بشأن المسابقة ، يومان فقط كانا كافيين ليأتى الرد بشكره على الاهتمام:

-شكرا!

-العفو ، ألن تشاركى؟

-ممم...ربما ، فى الواقع لا أملك وقتا كافيا لمثل هذه الأمور.

-هذه الأمور؟...ترينها ثانوية؟!

-ليس بالضبط ، لكننى صيدلانية وهو الأهم.

-ممم...على كل حال أنا هنا فى الخدمة ان احتجتى لشئ بشأن هذا الأمر.

-شكرا لك!

سعادته بردها أيا كان مضمونه كان مسيطرا على مشاعره بشكل كبير ، الآن فقط أيقن أن صورته بدأت فى العودة لبعض نقاءها فى رأسها ، مضت به الأيام مسخرا وقته للبحث عن المزيد من فرص يراها مناسبة لها ، توالت الرسائل وتوالت ردودها الروتينية الرافضة (فى ذوق) لأى منها ، كان يراها دائما بحاجة لمساعدة أحدهم ، يعرف ليلى أكثر من أى شخص

وان لم تبُحْ له يوما بأحد اسرارها ، علمه حبه أن يرى ما وراء الستار ، تلك المسكينة السائرة وحيدة فى سبيل الحياة تحتاج الكثير ، لم تجد بعد العرَّاب جامع الجواهر يضمها لمثيلاتها القادمات من عالم ملائكى بعيد فى قصر من ذهب الجنان ، دائما ما رآها غريبة عن هذا العالم الانسنى البغيض الفاقد لكل شئ ، كيف لمثلك أن تكون هنا يا ليلى؟ أين هو هذا العرّاب اللعين ليضمك لباقته فى ترحاله الطويل ، لماذا تأخر وكيف تأخر وهل يدرى عن من تأخر؟...ليذهب وتأخيره للجحيم ، سيضع ذلك الكاتب على عاتقه مسئولية حمايتها ولو لم تُرِد حتى مجيئه يوما ما ، من يدرى؟...علَّ فى تأخيره ذاك اشارة له...للبدء من جديد!

حدثه قلبه المحب الذى لم يغادره حبه طوال السنوات الثلاث ان ابدا من جديد ، ماذا عن محاولة أخرى قد تُعيد الحياة لرفات قلبه الراحل قبل عامين؟ ، داوم على محادثتها مرارا وسعد بنبل ردودها ، بعث لها بروايته الثانية فقرأتها وأثنت عليها ، ناقشها فى مشكلاته وقدمت الحلول ، حتى قرر من جديد البوح:

-ليلى...اريد محادثتك بشأن شئ ما!

-تفضل يا أمجد ، خير؟

-هل...هل تقبلين الزواج بى؟

-ماذا؟!

-اغضبك السؤال؟!

-كيف لك بمثل هذا السؤال؟ ، الم نتحدث فى هذا الشأن قبل الآن؟...أم تُراك نسيت؟!

-لا ارانى ارتكبت جُرما يدفعك لمثل هذا الغضب ، بامكانك الرفض وحسب.

-ليس الأمر بالسهولة التى تظن ، تاريخ سنواتنا السابقة يجعل من الأمر ذا طابع مختلف.

-حسنا يا ليلى ، آسف بشأن هذا على كل حال ، اعتبرى هذا خطأ غير مقصود ، واعدك أن هذه ستكون محادثة الوداع ، يبدو أن وجودى فى حياتك يسبب الكثير من المتاعب لكلينا.

-.......

كان هذا آخر الأحاديث ، رحلت ليلى من جديد ، لكنه الرحيل بلا عودة هذه المرة ، لا يذكر الآن رغم مرور السنوات ان حديثا آخر جمعهما ، استمر فى متابعة اخبارها من خلف الستار فترة من الزمن لم تلبث ان تلاشت ولم تتلاشَ ذكرى صاحبتها الرابضة هناك فى ركن بعيد من أركان ذاكرته يستعيدها كل حين بعيد فى ليلة قمراء حين ينفرد بورقته وأقلامه ، أُغلقت صفحة ليلى فى كتابه للأبد ولم تُقطع ، ظلت بين صفحات الكتاب لامعة سطورها رغم كل شئ ، فقط لأنها...كانت هنا ذات يوم.

كانت هنا

فى مكتباتى محتوى أسمى كتاب

كالشمس تبعث نورها من بين أكوام السحاب

تغزو مواقع حيرتى كالبطل منتزع الجواب

كانت هنا

سقى البذور

شعرا ونثرا هائما من بين طرقات السطور

كانت هنا فى كفها بذل العطايا مزْجُهُ سوء العذاب

كانت هنا

فوق النخيل وبين زهرات الحقول

أسمى عجائب عالمى الخارقاً فهم العقول

تنل برقة نايها مالم تنله شدائد دقات الطبول

كانت هنا كانت هناك

كالطير فى علياءه متقمصا دور الملاك

كانت هنا

غوث السماء ملبيا جاف المراعى والسهول

كانت هنا

لحنا مجيدا ساد معزوف الخلود

صوتا تعملق بالصدى متخطيا كل السدود

نبضا تسيد نظمه عروش أسباب الوجود

أولا تعود؟

أولا تزيل برفقها ما قد أقمنا من حدود؟

كانت هنا

تعنى الحياة

تاجا أضاء بنوره السائدات من الجباه

كانت هنا

حكما مهابا خارج محكمة الشهود

كانت هنا قبل الشتات

حين الحياة وقبل أسباب الموات

دسم الموائد قبل طغيان الفتات

كانت هناك ولا تزال

فى بسمها مزج المآخذ والنوال

كانت هناك بمعجمى لفظ المتانة والثبات

لازلت أذكر رحلتى عبر البلاد

أتحسس الوجه المضاء بكل معمور وواد

أتلمس الصوت الرخيم الآثراً أذن العباد

ثم انقضى الترحال بى

وقضاءه أن تذهبى

تنكست راى الآمال ورفرفت راى الحداد

سأهجر كل مدينة لا تحتويها

أبيع نفسى فى المقابر جثة كى أشتريها

أصغى الى صوت المآذن فوق جنة منشئيها

تبدو أمامى لؤلؤا بين المحار فانتقيها

ليلاه آن لصرختى أن تسمعى

ليلاه آن لدمعتى أن تدمعى

أولا تعى؟

أن البعيد من المشاهد مخدعى

أن الحقير من السجون باتت مرتعى

كونى معى

فى عملتى بين النفائس فالمعى

أو اجمعى

سبائك منجمى المهجور اذ تتمتعى

ثم عودى من هناك إلى هنا!!

٢٠-خواطر ما بعد الرحيل!

هل حقا سينسى أمجد ليلى؟ ، هل ستختفى من قصته عازفة الكمان وعذب ألحانها؟ ، هل سيقابلها بعد أعوام فى طريق ما فيكمل سيره وتكمل سيرها دون أن يتعارفا؟ ، أسئلة عدة تقافزت فى ذهنه حتى انتبه لكلمات أحد المطربين يقول (بكره نقول كانت ذكرى وعشنالنا يومين) ، كانه به يسمعها لأول المرات وهو السامع لها من قبل مئات المرات ، شعر كأنها قد قيلت فيه دون غيره من المحبين ، هل بالفعل تتحول ليلى لمجموعة من الذكريات موضوعة على رفوف ذاكرته لا تلبث أن تتراكم عليها ذكريات سنوات قادمة تبعثها لمصير النسيان؟...يشك!

بقيت كلمات حديثها الأخير له عالقة فى ذهنه أبد عمره ، طلبت منه ألا يذكر اسمها لأى شخص كان فلجأ لأوراقه يذكرها بطلة فى جميع رواياته وان سماها باسم مختلف ، اختلفت الأسماء وتعددت الروايات وتداخلت الأحداث وبقيت روح ليلى مسيطرة بصفائها على البطلات يصفها قلم حبيب لها أبت حبه ذات يوم.

غادرت ليلى حياته بجسدها ولازالت روحها تضئ جنبات الحياة وصاحبها ولو بقناديل خفت نورها بالرحيل ، أبدا لن ينسى ذلك العام الثالث فى كليته وما حمله له من ملكة استحقت بجدارة عرش قلبه ، أبدا لن ينسى....ليلى!

٢١-أكمل سيره وابتسم!!

كانت ظهيرة اعتدلت أجوائها ، خطوات عدة قضاها هذا الرجل وفى يديه ابنته فى عبور الشارع للجهة المقابلة ، همَّ بالدخول من هذا الباب الزجاجى قبل أن يلفت انتباهه صورته منعكسة باهتة على واجهة الباب ، ما أسرعه تتابع السنوات ، هاقد خط الشيب طريقه بين سبل شعره فبات رأسه حائرا بين أسود الشباب وأبيض الشيب ، ابتسم ابتسامة خفيفة سخر فيها من سذاجة بنى آدم حين تأخذه الدنيا بغرورها وليس بينه وبين العالم الآخر الا أعوام يقضيها سريعا ويحسبها تمر على بطئ ، دفع الباب ودخل بصحبة صغيرته حتى وصوله لمنتصف المكان قائلا:

-من فضلِك ، أريد هذا الدواء!

قالها مادًا يده ب(روشتة) فأتاه الرد منها وهى المعطية له ظهرها:

-حاضر ، ثوانٍ فقط!

سمع الصوت فخفق قلبه ، لم ينسه رغم مرور الأعوام العشرين ، اقتربت منه فخفق قلبه بشكل أسرع حتى كأن صغيرته تسمعه عبر يديها الممسكة يديه ، لازالت رغم مرور السنوات بهية الطلعة جميلة الصورة ، لمح هذا الفتى هناك على مكتبها فخمن أنه ابنها إضافة لتكور بطنها مما ينبؤ أن هناك أخا له فى الطريق للحياة ، خرجت الكلمات أخيرا من فمه حين اقتربت تبادله الدهشة بالدهشة:

-أمجد؟!

-ليلى؟!

لحظات صمت مضت أعقبها قوله:

-مضى وقت طويل ، كيف حالك؟

-أنا بخير الحمد لله ، قرأت كتابك العشرين بالمناسبة ، كان رائعا!

ودَّ ساعتها لو أخبرها عن رأيها فى البطلة ، كانت صاحبة دور البطولة كعادة سابق رواياته التسعة عشر غير أنه اكتفى بابتسامة شكر متكلفة أعقبها بقوله:

-أشكرك.

-ابنتك؟

قالتها ناظرة لتلك الصغيرة فى يده عائدة بنظرها اليه يأتيها رده:

-نعم ، ليلى ، أصغر بناتى وأقربهن إلىَ

صمت حينا ثم استطرد:

-تهوى عزف الكمان بالمناسبة!

أراد لها أن تعلم أنه قد أخلف وعده بنسيانها فتسامحه ، أراد تخليد اسمها فى حياته بأقرب بناته اليه ، اكتفت بابتسامة عريضة وناولت الطفلة قطعة من الحلوى تلقتها منها الصغيرة ذات الضفيرتين بامتنان برئ.

استمر الحديث بينهم دقائق أنهاه استعجال الصغيرة لوالدها بالانصراف بعدما أصابها الملل من حديث الكبار الذى لم تفهم منه شئ ، استجاب لها أبوها فودَّع ملكته القديمة وانصرف وهو الراغب فى البقاء ، مضى وقت طويل لم ينسها فيه قط ، يا الله هاجمت رأسه هاتين الصورتين لزينة وسعد...كيف نسيهم بهذه السهولة بعد هذه السنوات ولم ينسها ، جاءته الإجابة سريعا من قلبه أن لا ذكرى لغير الأنقياء فى قلبك يا عزيزى ، غادر المكان قبل أن يعود بنظره لتلك اللافتة (صيدلية الدكتورة ليلى مدحت) ، كيف لم ينتبه للإسم؟ ، وان انتبه...هل كان سيكمل خطواته للداخل أم ينسحب فى هدوء كما انسحب من حياة صاحبته قبل عشرين عاما؟ انتبه من خواطره على صوت صغيرته القائلة بصوت كأنه المستعار من تغريد الفراشات:

-هذه السيدة طيبة جدا يا أبى!

تلقاها منها مبتسما يشد على يديها فى حنو فعاد لأفكاره من جديد ، تُرى كيف كانت ستسير حياته لو نادتها صغيرته (أمى) بدلا من (سيدة طيبة)؟ ، نظر اليها نظرة استغربتها الصغيرة من والدها سائلا نفسه تُرى كيف ستسير حياة ليلى الصغيرة؟ ، هل تقابل فى قادم أيامها من يحبها مثل هذا الحب الصادق ثم تفرق بينهما الأيام من جديد فيلاقيها صدفة بعد أعوام عشرين وقد صار لها طفلين؟) ، لم يُطل التفكير كثيرا فعاد الى تلك اللافتة وما تحتها كانه به يجتهد فى حفظ المكان وملامحه ، لا يدرى أيحفظه فيتردد عليه من جديد فى قادم أيامه أم يحفظه كى يتحاشى الاقتراب منه مجددا ، لم يجب!...خطى خلال الشارع الى جهته المقابلة...أصبح هناك عائلة تنتظر عودته!

فتح باب سيارته تتلقاه زوجته بابتسامتها الجميلة كعادة سنواتها السابقة الى جواره تعينه على كل شئ ، استقبلته بناته بالترحاب كعادتهم فباغتهم بسؤاله:

-والآن أين يردن صديقاتى الصغيرات تناول الغداء؟

جاءته الاجابات كثيرة متداخلة يتلقاها وزوجته بابتسامة أضاءت محياها الجميل كما اعتاد منها قبل أن ينتبه لطريقه من جديد يدير محرك سيارته وفى ذهنه صورة بدأت تخفت بعد لمعانها لدقائق قابل صاحبتها منذ قليل ، عادت الصورة الباسمة من جديد لمكانها على أغلى رفوف ذاكرته وقد حلت مكانها فى رفوف الصدارة صور عائلة ملأت عليه حياته من جديد.

ألقى نظرة الوداع على الصيدلية ولافتتها وصاحبتها البادية من خلف زجاجها تنظر اليه قبل أن يدير محرك سيارته تتصاعد فى ذهنه مشاهد حلم قديم غادرته إحدى عازفات الكمان فى نهايته تحت شجرة الصفصاف ، لم يطل التفكير فى استعادة الحلم ومشاهده ، أكمل سيره بعائلته فى هدوء....وابتسم!

النـهاية البداية!